**جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية**

**قسم اللغة والأدب العربي**

**السنة الأولى ماستر**

**المحاضرة الأولى**

**الظروف السياسية والاجتماعية لهذا العصر**

**عصر الانحطاط لمحة تاريخية**

لقد دخل مفهوم الانحطاط حيز التداول من خلال الدراسات التي قام بها المستشرقون في القرن العشرين وتابعهم الباحثون العرب في دراستهم عن الأدب العربي.وعمد الباحثونالعرب إلى تكريس نظرية تقسيم العصور الأدبية العربية الى: عصر الجاهلية- عصر الإسلام ثم عصر الدولة العباسية والأندلس ثم عصر المماليك والعثمانيين الذي يمثل عصر الانحطاط وأخيرا عصر النهضة. وهم اعتبروا العصرين المملوكي والعثماني من عصور الانحطاط، ما المقصود بالانحطاط؟ وما أبرز مظاهر الانحطاط ؟ .

**تسمية عصر الانحطاط بهذا الاسم:**

المدة الزمنية لعصر الانحطاط تغطي ما يزيد على 5 قرون ونصف منذ سقوط بغداد على يد المغول عام 1258م حتى عام 1798م حين رست سفن نابلين على شواطئ مصر مدشنة بداية عصر النهضة". وهنا يعتقد **عمر فروخ** فی کتابه **تاریخ الأدب العربی**: "هذه الفترة ليست قليلة الشهرة فحسب، ولکنها مظلومة أيضا إذ یسمي القسم الأخیر منها عصر الانحطاط تسمية فيها قليل من الصواب والحق وكثير من الخطأ والباطل. ..فمن الجفاء أن نتصفه بالضعف أو وصف الانحطاط والانحدار، ولا يجوز إهماله؛ لأنه قطعة من تاريخ الأمة الإسلامية الحاسم .

نلاحظ في هذا العهد مصطلحات أطلقت عليه، وذلك ناجم على ما اعتراها من تسيب وفوضى سياسية واقتصادية وإدارية واجتماعية. نعتت تارة بأدب عصور الانحطاط والانحدار، ومنهم من سماه بـعصر العثمانيين‏، وآخر ادعى بأنه العصر التركي‏، بينما البعض الآخر وصفه بـعصر المملوكي والمماليك‏، وهناك من يطلق عليه المغولي، وتارة سمّي باسم أدب الدول المتتابعة وتارة باسم أدب العصور الوسطى الإسلامية، ومن هذه المسميات ما وسم ( بالفترة المظلمة ) او ( العصور المظلمة ) بوصفها عصور الانكسار السياسي ، والتأخر الاقتصادي والاجتماعي والاجتياح الاجنبي. إلا ان بعض الباحثين ممن تحفظ فأطلق تسمية الدول المتتابعة.

يصف أدب هذا العصر بالتقليد والانحدار لكن قسماً آخر من النقاد والدارسين اشادوا بعطاء هذه المرحلة العلمي والأدبي وما فيها من عبقرية وابداع في المؤلفات والموسوعات الكبيرة التي وجدت فيها ومثال ذلك : ان كبار المعجمات العربية الفريدة في التأليف المعجمي والرائدة في النظام والدقة هي من مؤلفات هذه العصور من امثال (لسان العرب) لابن منظور المصري و(المصباح المنير) للفيومي و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي و (تاج العروس) للربيدي فضلاً عن عشرات غيره من المؤلفين .

**أولا :الحالة السياسية** :

واجهت الأمة الإسلامية في هذا العصر موجات ثلاثا من الغزو:  موجة الغزو الصليبي. ثم موجة الغزو المغولي الأولى بقيادة هولاكو، التي انتهت بسقوط بغداد، واستباح التتار المدينة وقتلوا الآلاف، ثم غزت مصر والشام، لولا هزيمتها في عين جالوت. الموجة الثالثة هي موجة الغزو المغولي الثانية، وقائدها تيمورلنْك من سلالة جنكيزخان، الذي قام بتخريب غالب مدن العراق وحلب وأحرق دمشق . زد على ذلك، اضطرابات ومنافسات الأمراء والسلاطين داخل الأراضي الإسلامية

أما في بلاد المغرب فقد حقق الصليبيون مبتغاهم باستيلائهم على الأندلس…، ثم لما ضعفت دولة الموحدين انقسمت بلاد المغرب العربي إلى ثلاث دويلات هي: الحفصيون بتونس، بنو زيان بتلمسان وبنو مرين بفاس. ثم ظهرت الدولة العثمانية التي تأسست أوائل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وضمت كل البلاد العربية باستثناء المغرب الأقصى، فابتدأ بذلك العهد التركي. ولذلك يقسم المؤرخون هذا العصر إلى مرحلتين هما:

-العهد المغولي و المملوكي: ويبدأ من سنة 656 ه إلى 923 ه، ويشمل حكم المغول التتار للعراق والمماليك لمصر والشام و دويلات المغرب العربي.

-العهد التركي و يبتدئ سنة 923 ه تاريخ انتصار السلطان العثماني سليم الأول على المماليك، وينتهي هذا العصر سنة 1213 ه تاريخ الحملة الفرنسية على مصر.و بعد هذا العرض التاريخي الموجز نعرض لك ظروف هذا العصر السياسيةو الاجتماعية و الفكرية.

وقد ساد الاضطراب السياسي دولة المماليك منذ نشأتها إلى نهايتها، فلم يستقر الحكم لواحد من حكام المماليك زمنا طويلا إلا نادرًا، ولم يكن عندهم نظام محترم لتولي الحكم، فلذلك كثرت المؤامرات السياسية، وصار لكل أمير مملوكي جماعته التي يعتمد عليها في اغتصاب الحكم عندما تسنح له الفرصة، إضافة إلى هذه المشاكل الداخلية كانت المعارك الخارجية مع المغول من جهة والصليبيين من جهة أخرى. ولم تكن بلاد المغرب العربي بأحسن حالا، فدويلاته الضعيفة كانت تعيش الاضطراب والفوضى الداخلية والعدوان الخارجي من شمال البحر المتوسط وإذا كانت الخلافة العثمانية قد استطاعت لفترة أن توحد المسلمين فإن نظامها الاستبدادي لم يساعدها على الاستقرار، وما إن ضعفت حتى تقاسم الأوربيون ثروة الرجل المريض، فوقعت معظم البلاد العربية والإسلامية تحت سيطرة الاستعمار الأوربي.

**ثانيا : الحالة الاجتماعية :**

فرض الحكام ضرائب باهضة على الرعية بما يحقق للحكام وأعوانهم حياة الرفاهية من جهة، وما يساعدهم على تهيئة الجيوش ومتطلباتها من جهة أخرى. كما تطاول المسيحيون على مدن الشال بالمغرب العربي بالعدوان والنهب والسرقات، انتشرت البدع والخرافات، وواجهت الشعوب أزمات اقتصادية وابتليت بمرض الطاعون الذي فتك بالآلاف في القرن الثامن الهجري

**ثالثا : الحياة الفكرية :**

شهد عصر المماليك نهضة فكرية وعلمية، حتى عرف هذا العصر بعصر المصّنفات والتأليف، وبرز فيه علماء أفذاذ لا يزال ذكرهم إلى اليوم يملأ الآفاق. ومن أشهر هؤلاء العلماء : ابن البيطار في الطب، ابن خلدون في علم الاجتماع، ابن خلكان في السير والتراجم، المقريزي في التاريخ، والسيوطي في التفسير. وعرفت في هذا العصر الموسوعات العلمية مثل لسان العرب لابن منظور، نهاية الأرب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي، وديوان العبر لابن خلدون، والألفية لابن مالك وغيرها كثير.

كان أسلوب أصحاب التصنيف في هذا العهد – من لغويين ومؤرخين ورحالة – أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف، لأن غايتهم علمية لكن الشعر قد أصيب بوباء التنميق اللفظي، ومع ذلك فقد عرف العصر بعض الشعراء المجيدين ومنهم البوصيري وابن الوردي والشاب الظريف .صفي الدين الحلي .

لكن ضعفت القدرة على التوليد والابتكار في الحياة الأدبية، وفساد ملكة اللغة العربية، وتردي اللغة الفصحى، فأدبه متهم بأنه **سطحي المضمون بل يكاد يكون اجترارا لما سبق من معان، وسيطرت العجمة والركاكة على لغة الإبداع** بسبب عدم عناية السلاطين والأمراء بالأدب والأدباء وعدم اهتمامهم باللغة العربية كلغة رسمية ولاسيما في عصر العثمانيين الذي حلّت محلها اللغة التركية وغلبة العجمة عليها. كما أخذوا إلى العاصمة اصطنبول خيرة علماء العربية ومهرة الصناع والحرفيين. وكان ذلك سبباً في تراجع الاهتمام وتدهور اللغة وتفشي اللحن والعامية والجهل والأمية.

ففي عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ازداد عدد العلماء والشعراء والكتاب والمؤلفين زيادة كبيرة لأسباب، منها هروب العلماء والأدباء من شرقي العالم الإسلامي إلى مصر والشام إثر اجتياح التتار، وهروب العلماء والأدباء من غرب العالم الإسلامي (الأندلس) إلى مصر والشام، بعد اجتياح الإسبان للدولة الأندلسية المسلمة، ومن تلك الأسباب الاستقرار الأمني الذي تمتعت به بلاد مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ورعاية حكامها للعلماء والأدباء،

وكان من نتيجة هذه العوامل أن استطاع العلماء تعويض المكتبة العربية الإسلامية بعض ما ضاع منها حرقاً أو إتلافاً أو سرقة، وكانوا في تأليفهم يعتمدون على ما وصل إليهم من العصور السابقة فيقومون بتصنيفه وترتيبه وتدوينه في كتب جامعة تقرب من الموسوعات. وكثرت في هذا العصر الشروح والذيول والحواشي، حتى سمي بعصر التحشية.

لكن هذه الحقبة الخصبة لم تستمر في عهد العثمانيين، حين أبطل ديوان الإنشاء العثمانيون فتدهورت الثقافة، وانقطع إنفاق الدولة على هذه المدارس كلها وأخذ عددها يتناقص يوماً بعد يوم. وحل محلها كتاتيب صغيرة تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. حتى إذا أوغل الجهل على البلاد العربية المحكومة، وصار من النادر وجود من يحسن القراءة والكتابة فيها.

لم يكن أدب هذه الفترة ضعيفا راكدا خامدا، بل كان استمرارا لأخريات العصر العباسي. إنه بنوع ما عصر المحافظة على الموروث العباسي وتقليده بدافع الاحتفاظ بالشخصية العربية وما تملك من فكر وإبداع أمام أعدائها المغيرين المستدمرين من المغول الوحشيين أوالصليبيين الحاقدين.

قصارى القول أنه لا يجوز إهمال هذا الأدب الذي هو قطعة من تاريخ الأمة ولأنه يثير في النفوس النزعة إلى الإصلاح، ثم إن هذا الزمن فيه تراث أدبي كثير بإنتاجه وبرجاله وجودته بادية للعيان لكل من له فهم زاخر في شتى المجالات.لكن العلة الوحيدة التي تذرع بها دارسو هذا الأدب أنه مصنوع؛ ومكثر من البديعيات والألاعيب اللفظية والمعاني المكرورة.

وقصارى القول أن الأمة العربية لاقت من الكوارث والحروب وتخريب المدارس وتحريق المكاتب والمجاعات والأوبئة. وزد على ذلك حكم العناصر الأعجمية واستبدادها بالأحكام والعقول والأفكار حيث كان له أثر بليغ وعميق في تخدير عقولهم وتقهقرها وبالتالي تدهور العلم والأدب. هذا العصر بمجمله عصر الخوف والفساد من جميع نواحيه، عصر تقتيل العلماء والأدباء والشعراء، تحريق الكتب والمكتبات وتخريب المدارس والمساجد ومراكز العلم، عصر السعايات والدسائس، استعباد الأفكار وتحطيم الأقلام وخنق حرية الفرد والجماعة، وأخيرا أسوأ العصور على الأدب العربي في البلاد العربية والإسلامية في شتى النواحي.

ويليق به لهذه الميزات التي يمكن أن نخلصها فيما يلي:

- أدّى هذا الأدب مهمته في تصوير الحياة في ذلك العصر سياسيّا، اجتماعيّا وثقافيّا.   
 رأى هذا العصر اتجاها شموليا في التأليف بالموسوعات والمجاميع وبالشروح والحواشي في العلوم المختلفة وكان غنيا زاخرا جدّا. وقد كثر التصنيف في العلوم المختلفة من التفسير والحديث والفقه والعلوم الطبيعية والرياضية والجغرافيا والتاريخ والملاحة وغير ذلك.

-أنشئ عدد كبير من المدارس والجوامع في جميع أنحاء البلاد كان فيها أساتذة يلقون دروسا في موضوعات معينة فی الحديث ودراسة علی المذاهب الأربعة و تفسير القران الكريم وأصول الدين واللغة والأدب. وکذلک العلوم الرياضية والطبيعية من الرياضيات والفلك والجغرافية والهندسة والطب.   
- ازدهر التيار الصوفي في الإبداع الأدبي شعرا ونثرا وفكرا حيث كثر التأليف فيه مع ابن العربي، ابن الفارض وعبد الغني النابلسي، ابن الخطيب وغيرهم.

- انتقل الأدب من الاتجاه الغنائي الذاتي المتصل بالحكام وأصحاب السلطة والقدرة في الغالب إلى الاتجاه الموضوعي العام الذي يعبر عن هموم العامة ولو دخلت بعض الألفاظ السوقية في الأدب واهتم أصحاب الحرف به ولكن ازدهر التيار الشعبي في الإبداع في شتى المجالات.   
 ازدهر فن المديح النبوي الشريف والبديعيات في مدحه والأولياء والاستشفاع بهم والشكوى إليهم.   
-ظهرت فنون الشعرية المستحدثة كالموشح، المواليا، القوما، الزجل، الكان وكان، الدوبيت، التشجير، التخميس، التشطير وغيرها. كما قوي الشعر التعليمي والغزل المذكر والشعر الصوفي والمجون آنذاك.

-كثرت إنتاجات فنية ومعمارية التي لم يكن لها مثيل في عهد المماليك منذ القديم رغم ما كان من الفوضى الداخلية والاضطرابات والفتن، حيث وصل الفن الإسلامي إلى ذروته باستعمال المقرنصات والزخارف الكوفية والأشكال الهندسية والأبواب البرونزية المزخرفة للمساجد والشمعدانات وصناديق لحفظ المصاحف من الذهب المرصّعة بالحجارة الكريمة وفسيفساء في المحاريب وصناعة خشبية دقيقة في المنابر.

-في هذا العصر اتسع العمل بخيال الظل بيد ابن سودون الذي هو أول من أحدث خيال الظلّ؛ غير أن نشأته قديمة في المشرق الإسلامي وكذلك كان في مصر من قبل ذلك. كما ظهرت كتابات تتعلق بخيال الظل لمحمد بن دانيال الخزاعي وعنوانه " طيف الخيال في معرفة خيال الظل" الذي يمكن لنا أن نعتبره الأثر الوحيد الباقي للشعر الروائي وذلك في ثلاث بابات.   
 أظهر الشعراء حذقهم بالاستكثار من الألفاظ المصغرة أو المهملة والمعجمة أولزوم ما لا يلزم وما لا يستحيل بالانعكاس كما اقتصروا علی الألفاظ والتراكيب السهلة واستعملوا كثيرا من الأمثال العامية دون الألفاظ الجزلة والتراكيب المحكمة والرصينة.

-ظهور أسماء بارزة في فنون النثر والشعر المختلفة مثل: ابن خلدون، وابن خلكان، والنويري، وابن منظور، والقلقشندي، والسيوطي، والشهاب الخفاجي، وعبد القادر البغدادي وفي الشعر الشاب الظريف، وشمس الدين الكوفي، والبوصيري، وصفي الدين الحلي، وعبد الغني النابلسي، وغيرهم.